مثل أبطال الملاحم، يظل متميزاً، مدهشاً، وغريباً.. «انه نوع من الرجال ينبت فجأة أمامك فاذا بك غير قادر على نسيانه، وبدل أن يتجه مثل كل الناس إلى الأشياء، تتجه اليه الأشياء من تلقائها» (ص ٤٣٠ - ٤٣١).

وكأنه اسطورة؛ إذ يمشي على النار بأقدام هادئة وثابتة، فيثير الناس بمشيته الثابتة تلك فوق الجمر المشتعل مثلما تثيرهم اكوام القماش المتسخ الملفوفة حول قدميه. انه أمر لا يحدث إلا مع عاشق. هكذا يقولون. لكنه لم يكن إلا عاشقاً من نوع غريب.. ليس عشقاً لامرأة، وانما لقضية. هكذا نكتشف نحن.

إن الخيال الشعبي يبني هالة من مادة الاساطير حول هذه الشخصية، ولكن الاسطورة لا تصنع إلا بطل الوهم. أما «العاشق» الذي يضعه الكاتب أمامنا، فهو البطل الذي انجبه الواقع وجعل منه بطلاً حقيقياً يختزل في نفسه بطولة شعب. فهو ليس محصلة الاساطير التي نسجت من حوله، وانما هو البطل الذي تكوّن من محصلة تجاربه؛ فالانسان «لا يمكن ان يكون إلا محصلة تجاربه» (ص ٤٣٦)، فهو في النهاية النقيض الثوري للبطل الاسطوري.

وتغيب البطولة عن الواقع والذاكرة في الأجزاء الاولى من رواية «الأعمى والأطرش»؛ إذ يكون الوهم هو البطل الوحيد الذي يسيطر على شخصيتي الرواية الأساسيتين، الأعمى «عامر» والأطرش «ابو قيس»، اللذين يبحثان عن مخلص لهما من عاهتيهما، فلا يجدانه إلا في الوهم، باحدى رموزه المادية على الأرض... قبور الأولياء.

وعندما يكتشفان أن ضريح الولي الذي يتوسلان منه الخلاص ليس الا مجرد وهم، يقرران هدمه للتخلص منه. لكن مجرد وعي الوهم لا يحقق البطولة، لأن الوعي لديهما لم يتمكن من الالتحام بالفعل والممارسة، وغياب الوهم، وجده، لا يجترح المعجزات... فلا بد من بديل عن الوهم. «تصبح الامور عسيرة حين يموت الأولياء، تنهار جسور الوهم وتتعفن الوعود ويتعين عليك أن تحمل قدرك» (ص ٥٢٣). فما الذي يفعله موت الولي سوى تحقيق انتصار صغير يفقد نضارته مع الأيام!

ولا يتحقق ظهور البطل المقاوم، نقيض تلك البطولة الوهمية التي تظل تدور في أحلام أصحابها، إلا باطلالة والد الصبي «حمدان» الرجل الذي حمل السلاح منذ سنوات طويلة، فذاق أهوال السجون لسنوات طوال، ثم خرج منها متغيراً وشاهداً على الزمن الذي تغير.

وهنا، لا يكتفي غسان كنفاني بتقديم «الفدائي» كنموذج مناقض للوهم يحمل السلاح، وإنما يغدق باسقاطه الايديولوجية ليعطي من خلالها مفهومه السياسي للبطل الجديد. فالبطل الذي يحمل السلاح المجرد ليس هو البطل المطلق، فهذا، وحسب تعبير بطله «ـه»، «من جماعة الطق طق» المهووسين بالندقية وحدها، وبمظهرية البطولة، ولا يعرفون شيئاً في السياسة. ويقدم نمطاً على ذلك «مصطفى»، الذي لبس الملابس المرقطة ومشى متباهياً بسلاحه، وظل من اشد المدافعين عن أوهام الولي.